الباب الثامن

حرب غزة ومستقبل الصراع

الفصل الأول

إسرائيل على شفير الهاوية

تمثل حرب غزة مرحلة مهمة من المسيرة الإسرائيلية للإخفاق والفشل، وغياب الرؤية السليمة للصراع. وتمثل أيضًا حلقة أخرى من حلقات ضعف المناعة القومية للكيان الصهيوني، وضعف مكوناته النفسية والاجتماعية والإستراتيجية.

فإسرائيل تدرك تمامًا أنه لا مناص لها من الانتصار في أي مواجهة مع العرب. أما الهزيمة فهي تهديد خطير لوجودها، «كان بن جوريون هو الذي قال: إن إسرائيل إذا انتصرت في خمسين حربًا فإنها لن تخضع العالم العربي؛ لكن حسبُ العرب أن ينتصروا في حرب واحدة من أجل القضاء على دولة إسرائيل»[1].

وقد رصدنا في الباب الأول الربط بين حرب غزة ومستقبل الكيان الصهيوني. وكيف أن هذه الحرب هي حرب اللاانبعاث، وهي وصفة للفناء الذاتي الإسرائيلي.

وفي هذا الفصل نستكمل شهادات كتاب العدو على أثر حرب غزة ـ وما تلاها من تمسك حماس بشروطها في صفقة شاليط ـ على مستقبل الكيان الصهيوني:

الثمار العفنة

يقول نداف هعتسني: «من أوجد الهروب والطرد المسميين انفصالًا لم يشأ أن يفكر إلى

(١) يوفال شتانيتس، ثقافة الحرب الضائعة، هآرتس، ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦.

النهاية. سُئل شارون ورامون وليفني عشية الانفصال ماذا سيحدث إذا هاجمنا الفلسطينيون بعد أن ننسحب ونُقتلع ؟ قالوا بثقة كبيرة: «سنضربهم بكامل القوة، وسيكون العالم كله إلى جانبنا».

على هذه الخلفية، عندما توالت الهجمات على غربي النقب، اُضطر محدثو الانفصال إلى استعمال نظام الدفاع عن الذات الذي وعدوا بتطبيقه. استعملوه وأضروا بنا جميعًا. لست أخال أنه توجد في التاريخ الصهيوني حرب أضرت بصورتنا في العالم مثل «الرصاص المصهور». منذ طرد العرب في ١٩٤٨ إلى السيطرة على مناطق الضفة في عملية السور الواقي، لم نقطف ثمارًا عفنة إلى هذا الحد.

يعبر تصور الانفصال أيضًا عن يأس أكثر لمعسكر السلام الإسرائيلي من تصور مهادن سابق هو تصور أوسلو. لأن الهرب من المناطق الفلسطينية وإقامة الجدار هو نتاج يأس من إمكان إحراز سلام حقيقي، ولو بثمن استسلام مناطق تام. الهروب من غزة هو الهروب من أوسلو، وكلاهما معًا يجسد الهرب من الواقع. من يهرب من الواقع يضطر إلى استعمال القسوة. ومن يستعمل القسوة يحصد ثمار هربه العفنة»[1].

حماس تُنْزل إسرائيل إلى ركبتيها

عندما يفقد شعب الدافع إلى التضحية، فإن الخسائر البشرية ـ سواء القتل أو الأسر ـ تُنْزله إلى ركبتيه، يقول المفكر الإسرائيلي زئيف شتيرنهل: «تبين في صيف ٢٠٠٦ نهائيًا، أن المجتمع الإسرائيلي لن يكون مستعدًا بعدُ للثبات في حرب اختيارية تتطلب ضحايا. فإسرائيل تريد انتصارات ؛ لكنها ترفض دفع الثمن البشري الذي تشتمل عليه. لهذا تم اتخاذ قرار واعٍ، هو ثمرة تقدير سياسي بارد، على القيام بحملة عقاب غزة بلا خسائر»[2].

إلى أن تصنع حماس الجميل

يعلق أليكس فيشمان على الشريط المصور لجلعاد شاليط الذي قدمته حماس إلى الوسيط الألماني لقاء تحرير عشرين أسيرة فلسطينية، فيقول: «حماس تُنْزل دولة بأكملها إلى ركبتيها.

(١) نداف هعتسني، مهما فعلنا لن يغفر لنا العالم، معاريف، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) زئيف شتيرنهل، لا يوجد ما يُحقق فيه، هآرتس، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٩.

تبتز تحرير عشرين سجينة أخرى ؛ وعندنا تصفيق عاصف. هذا الشريط يُعظّم حقيقة أن المخابرات وباقي محافل الأمن لم يتمكنوا من جلب معلومة تسمح بإنقاذ جلعاد من الأسر. ثلاث سنوات، ١٠ كيلومترات عن البيت، وليس هناك أحد لديه فكرة عن وضعه، إلى أن تصنع حماس الجميل للمبعوث الألماني وتطلق شريطًا بثمن مبالغ فيه»[١].

لو كنت فلسطينيًّا

وفي تعليق بالغ الدلالة لأحد المسئولين الإسرائيليين ينقله بن كاسبيت، فيقول: «**شريط** مصور مقابل عشرين سجينة يتوسل أبو مازن للحصول عليهن منذ أشهر. قال إسرائيلي بارز مقرب من هذه القضية بالأمس: لو كنت فلسطينيًّا لأعطيتُ صوتي لحماس. مع كل الاحترام للحياة الجيدة في رام الله والمجمعات التجارية والتفاؤل، فإن «حماس» تبرهن للجمهور الإسرائيلي في كل مرة من جديد أنها هي فقط التي تعرف كيف تُركِّع إسرائيل، وهي التي تعرف فقط كيف تجلب البضاعة المطلوبة. هم اختاروا تسع عشرة سجينة من الضفة وواحدة من غزة فقط عن قصد حتى يحرجوا «أبو مازن»، حتى تكون الصور في رام الله واضحة. وما هذه إلا البداية. انتظروا لتروا ما الذي سيحدث عندما سيعلن عن الصفقة ذاتها»[٢].

استسلام بلا خجل

صفقة شاليط كما يراها رئيس دائرة الأسرى في الموساد هي: «استسلام بلا خجل وبلا قاع لمطالب حماس. فالصفقة تُعيد إلى ميدان المعركة كبار القتلة. التجربة الماضية تفيد بأنهم سيعودون إلى العمل فيما يكون الثمن هو مئات القتلى في المستقبل. وتُعلِّم الفلسطينيين أن التصدي الوحيد حيال إسرائيل هو بالقوة. وستكون حماس مكللة بالنصر، وتتبنى فكرة إبادة إسرائيل»[٣].

---

(١) أليكس فيشمان، لا مبرر للاحتفال، يديعوت، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) بن كاسبيت، يد لحماس، معاريف، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) رامي إيجرا، الصفقة التي ستغير المنطقة، إسرائيل اليوم، ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩.

الزمن ليس في صالح إسرائيل

العالم يتغير. ولكنه تغير ليس في صالح إسرائيل والقوى الداعمة لها، يقول الجنرال المتقاعد يعقوب عمدرور: «بعد انفراط المعسكر الشيوعي بدا للحظة أن رؤيا الأنبياء حول السلام العالمي ستتحقق. أكاديمي أمريكي ألف كتابًا أسماه «نهاية التاريخ». وفي إسرائيل بدءوا يحلمون بالشرق الأوسط الجديد. الواقع انقلب على هؤلاء الأنبياء الكبار: التحديات اليوم أكبر وأشد ثقلًا، وليس من الواضح البتة أن هناك حلولًا متفائلة لأغلبيتها.

هناك أمور تؤثر على مناطق بعينها مثل: تعاظم قوة إيران الآخذة في التحول إلى دولة نووية، أو الخوف من سقوط باكستان النووية تحت ضغط طالبان وحلفائها من القاعدة الذين يعززون قوتهم في أفغانستان.

في الجزء القريب من إسرائيل يتضح رويدًا رويدًا أن «حماس» التي سيطرت على غزة تبني قدرات صاروخية قادرة على الوصول إلى أغلبية أراضي إسرائيل. «حزب الله» شكل جيشًا حقيقيًا في لبنان رغم أنه دولة سيادية وعضو في الأمم المتحدة.

جزء من هذه المجريات يبدو غير قابل للتغيير على المدى الطويل، وهي ذات قدرة كامنة على التغيير الحقيقي بالنسبة لطابع العالم الإنساني. على سبيل المثال، أوروبا تتحول إلى قارة إسلامية يومًا بعد يوم. وفي أفريقيا تنهار الدول بسبب الإيدز والمجاعة.

السؤال المثير هو: لماذا لا يواجه العالم هذه التحديات ؟ ما السبب وراء خيبة الأمل من سلوك العالم بعد عشرين سنة من ذلك الحلم الكبير ؟ ليس هناك على ما يبدو سبب واحد للفشل المتواصل ؛ ولكن من الممكن أن نذكر ثلاث نقاط مركزية تؤثر على بعضها البعض:

- دول أوروبا فقدت الرغبة في التضحية بالأرواح أو الموارد الكبيرة، وأثَّر ذلك أيضًا على قدرتها على خوض الكفاح من أجل مبدأ مهم. ما زالت هذه الدول تعتمد على قوة وإصرار الولايات المتحدة التي أنقذتهم في حربين عالميتين وخلال الحرب الباردة.

- الولايات المتحدة الأمريكية ـ التي تحملت هذا العبء طوال خمسة أجيال ـ مرهقة اليوم، وتنشد الهدوء. هي قد سئمت لعب دور شرطي العالم، هذا الدور الباهظ والصعب. لا غرابة إذن من أن أجزاءً ملموسة في الولايات المتحدة تبحث هي الأخرى عن نهج سياسي جوهره الامتناع عن الالتزامات التي تتطلب التضحيات.

• عدا هاتين القوتين ـ الاتحاد الأوروبي وأمريكا ـ ليست في العالم قوة كافية لتحمل هذا العبء. الدول الكبيرة التي تتطلع إلى مكانة دولية مثل الهند والصين وروسيا تحرص على مصالحها الضيقة، ولا تحاول المساعدة في بناء عالم أفضل.

الأمم المتحدة تحولت في حالات كثيرة إلى أسيرة بيد الأغلبية التلقائية من الدول. للمسلمين كتلة تلقائية تبلغ ثلث أعضاء الأمم المتحدة. واحتمال تمرير قرار من دون تأييد هذه الكتلة معدوم.

ما مغزى وجود عالم في وضع حرج ومفتقد للقيادة بالنسبة إلى دولة إسرائيل ؟ ما الذي يجب على إسرائيل أن تفعله إن كان الاستنتاج الحزين بأن العالم مجرد من الآليات والأجهزة الملائمة لمعالجة المشاكل الماثلة أمامه صحيحًا ؟ يبدو أن الاستنتاج حرج وحاسم تمامًا لدولة إسرائيل[1].

* * *

(١) يعقوب عمدرور، بعد ٢٠ عامًا من سقوط المعسكر الشيوعي: تبدد وهم نشوء عالم جديد خالٍ من العداء، إسرائيل اليوم، ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٩.

الفصل الثاني

إسرائيل لن تنجح في قمع تطلع الشعب الفلسطيني إلى الاستقلال

«يعتقد إيهود باراك أنه قد قُضي على إسرائيل أن تحيا من مواجهة إلى مواجهة، ومن جولة إلى جولة. فحماس تتلقى ضربة، وتبادر إلى تهدئة، وتزيد قوتها من جديد، وتطلق الصواريخ، وتضرب، وتزيد قوة، وهكذا دواليك. ويرى أنه لو كنا هاجمنا حماس في الصيف الماضي لاضطُررنا مرة أخرى إلى مهاجمتها الآن»[1].

«المجتمع الإسرائيلي لا يمكنه أن يواصل التملص من يسأل نفسه: لماذا حملة «رصاص مصهور» ـ التي كانت شروط بدايتها كاملة جدًّا ـ تبدو كخطوة تتدحرج نحو تعادل مخيب للآمال، رغم أنه طُبقت فيها كل الأمور الحكيمة التي تعلمناها في أعقاب حرب لبنان الثانية؟

الجواب بسيط ؛ ولكن زوغان البصر الذي يغشى عيون المجتمع الإسرائيلي منذ حرب الأيام الستة يجعل من الصعب عليه أن يلاحظ ذلك: النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني غير قابل للحسم بالقوة. إسرائيل لن تنجح في قمع تطلع الشعب الفلسطيني إلى الاستقلال. لا يمكن لأي قوة عسكرية أن تقتلع من قلوب ملايين الناس أمانيهم لتحقيق طموحاتهم الوطنية.

لقد قطعت إسرائيل شوطًا عسيرًا منذ حزيران يونيو ١٩٦٧ بسبب رفضها التسليم بهذا الواقع. وكلما مر الوقت ارتفع الثمن الذي يتعين على الدولة أن تدفعه لتسوية النزاع. مع

(١) ناحوم برنياع وشمعون شيفر، عدنا إليك ثانية، يديعوت، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

نهاية الأسبوع الثاني من الحرب، علقت إسرائيل في وضع هي مطالبة فيه أن تمنح اعترافًا ـ وإن لم يكن معلنًا ـ بمكانة التيار الإسلامي المتطرف في المجتمع الفلسطيني. محاوره لم يعد منظمة التحرير ـ ممثل التيار العلماني الوطني ـ الذي رأت فيه منذ زمن غير بعيد العدو اللدود للصهيونية، وهو يظهر الآن كأمنية لها في المداولات لإنهاء المواجهة»[1].

اعتراف إسرائيلي بخطورة الكفاح المسلح الفلسطيني

«في أحيان متقاربة نسمع السخرية من القتال الفلسطيني وتقزيم أضراره. لا يوجد أي تسويغ موضوعي لهذه السخرية. فقد قتل الكفاح المسلح الفلسطيني في الانتفاضة الثانية أكثر من ألف إسرائيلي، أي أكثر من عدد القتلى الإسرائيليين في حرب لبنان الأولى والثانية معًا، أو في حرب ١٩٦٧، أو في حرب سيناء. ليس هذا مسرحًا ولا لعبة أطفال. لم يكن عند الهنود الحمر صواريخ. ولم يكن لهم تأييد من قوة إقليمية، أو قدرة ما تشبه القدرة الفلسطينية على إدخال مئات آلاف الإسرائيليين في مدى الصواريخ.

إن علاقات القوى بين منظمات إرهاب وحرب عصابات وبين دولة تحاربها لا تقاس على حسب أنواع السلاح التي يملكها الطرفان. هذا عرض داحض للأمور، يخالف كل تجربة جُمعت في العالم. من ذا الذي لا يعلم أن منظمات إرهاب وحرب عصابات حاربت بفاعلية جيوشًا عصرية وهزمتها أكثر من مرة ؟!»[2].

الاحتلال إلى زوال

الاحتلال زائل لا محالة، يقول يوسي ساريد: «ما حصل لسور برلين قبل عشرين سنة، والمكافحة ضد الأبرتهايد بعد عدة أشهر، هذا ما سيحصل للاحتلال أيضًا. فهو سينهار حتى لو عززوه بالمسامير»[3]. وهو يقصد بذلك الاحتلال الإسرائيلي لأراضي ١٩٦٧. ولكن لا بد أن نشير هنا إلى أن مستقبل الكيان الصهيوني نفسه محل تساؤل كبير لدى الكتاب والساسة الإسرائيليين ولدى بعض الغربيين أيضًا، وهذا يحتاج لبحث مستقل لا يتسع المجال له هنا.

---

(١) عوزي بنزيهان، الفيل والمشكلة الإسرائيلية، معاريف، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) ألكسندر يعقوبسون، ليس القتل مسرحًا، هآرتس، ٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٣) يوسي ساريد، فلسطين الآن، هآرتس، ١٣/ ١١/ ٢٠٠٩.

ويقول أرال سيغل: « السياسة الأمريكية تنبع من التآكل في المواقف الإسرائيلية. في عهد أوسلو البهيج تحدثوا عن نقل ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من أراضي الضفة للفلسطينيين. في ١٩٩٩، وافق باراك على الانسحاب من ٩٨ ٪ من الأراضي في كامب ديفيد. ما كان بوسعنا أن نحققه في حينه نحن لا نستطيع أن نحققه اليوم، وغدًا سنُضطر إلى أن ندفع بالفائدة.

بينما يتواصل التآكل نصل إلى أماكن سخيفة؛ الفلسطينيون يعرفون بأن الصبر مُجد، وقد فهموا جيدًا رسالة: حكم نتساريم[١] كحكم تل أبيب»[٢].

شرك أرض إسرائيل الكاملة

يقول عاموس عمير نائب قائد سلاح الجو الإسرائيلي السابق: «عندما أقلعنا في صباح الخامس من يونيو حزيران ١٩٦٧ إلى عملية «موكيد» لمهاجمة سلاح الجو المصري، عرفنا أننا نشن حربًا دفاعية عادلة لا مثيل لها. كنا جميعًا شركاء في النشوة الكبرى. صدمنا النصر فلم نلحظ كيف جُرَّت إسرائيل إلى الشرك المفاجئ الذي أسميناه أرض إسرائيل الكاملة.

بن جوريون فهم الوضع على حقيقته. ودعا إلى إعادة كل المناطق المحتلة مقابل السلام. ولكننا ـ نحن من جرفنا الحلم والوهن ـ لم ننصت له. قالوا لنا: «شرم الشيخ دون سلام خير من سلام دون شرم الشيخ ؟» ونحن هززنا الرأس. كيف انكببنا بغباء على وهم «مملكة إسرائيل الثالثة»، ولم نفهم على الإطلاق حجم السخافة ؟!.

رأينا كيف أن الشباب والشابات يستوطنون دونمًا إثر دونم في الضفة وغزة. لم نستوعب على الإطلاق كيف كانت حكومات إسرائيل ـ على أجيالها الطامعة في الحكم ـ خائفة وعديمة الفهم التاريخي، تستسلم مرتعدة أمام شعب يهودا[٣] المصمم والمناور.

في منحدر طريقنا الملتوي نجحنا في أن نقيم، حزب الله في لبنان وحماس في المناطق، جُررنا إلى الانتفاضتين، ربينا جيلًا من الفلسطينيين الشباب المصممين بقدر لا يقل عنا»[٤].

---

(١) نتساريم هي إحدى المستوطنات الإسرائيلية في قطاع غزة والتي كان شارون يقول عنها: نتساريم كتل أبيب؛ ولكنه اضطر تحت وطأة صواريخ المقاومة الفلسطينية إلى الانسحاب منها ومن باقي مستوطنات القطاع في سبتمبر ٢٠٠٥.

(٢) أرال سيغل، المواقف الإسرائيلية .. آن أوان الكف عن لعبة التظاهر، معاريف، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٩.

(٣) المستوطنون في الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧.

(٤) عاموس عمير، ٤٢ سنة من السخافة السياسية الإسرائيلية، يديعوت، ٥/ ٧/ ٢٠٠٩.

نتنياهو: البلاد مقسمة منذ الآن

في مقابلة صحفية، قال نتنياهو: «البلاد مقسمة منذ الآن. بأي شكل ستوزع البلاد؟ كان هناك من تنبأ مسبقًا بخطوط ١٩٦٧ غير القابلة للدفاع. إسرائيل بحاجة إلى حدود دفاعية. يوجد أيضًا واقع قائم بالنسبة لمليون ونصف فلسطيني يعيشون في لب الوطن اليهودي. علينا أن نبحث عن حل حقيقي للتعايش معهم. نحن لا نريد أن يكونوا مواطنين ولا رعايا لنا»[1].

* * *

(١) شلومو تسزنا وآخرون، رئيس الوزراء في مقابلة خاصة: البلاد مقسمة منذ الآن، إسرائيل اليوم، ١٦/ ٩/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

صواريخ المقاومة ومستقبل الكيان الصهيوني

الصواريخ الفلسطينية على الرغم من بدائيتها تمثل تهديدًا خطيرًا لأمن وبقاء إسرائيل، وتشكل حماية للأمن القومي العربي من مخاطر حرب إسرائيلية شاملة، يعترف بذلك يوفال شتاينتس، فيقول: «عندما ستتبدد أعمدة الدخان في الجنوب سيتعين علينا أن نصحو لنسأل أنفسنا: كيف اقتنت حماس القدرة على تشويش الحياة في ثلث الدولة وإدخال مليون إسرائيلي إلى الملاجئ ؟! وما معنى الأمر ؟!

مفهوم الأرض مقابل السلام شدد على مبدأ التجريد من السلاح والجيوش للأراضي التي ستُسلم. من الحيوي على نحو خاص، تجريد أراضي الضفة وغزة بسبب قربها من المراكز السكانية، قواعد سلاح الجو، والمنشآت الإستراتيجية. والإبقاء على تجريد السلطة الفلسطينية يقوم على أساس بضعة ضمانات:

- الاتفاقيات بيننا وبين الفلسطينيين.
- السلام مع الأردن، والذي يتضمن التزامًا بإحباط التهريب من أراضيه.
- وقدرة الردع ـ أي قدرة الجيش الإسرائيلي على السيطرة على الأراضي في حالة إقامة منظومة عسكرية.

ولكن الضمانات انهارت كبرج ورقي. الاتفاقيات مع الفلسطينيين انهارت عندما

سيطرت حماس بالقوة على غزة. فمنذ وقّعت إسرائيل مع مصر على الاتفاق البائس المسمى «اتفاق محور فيلادلفيا» في عام ٢٠٠٥، نمت التهريبات بآلاف في المائة.

انهيار التجريد من شأنه أن يكرر نفسه بحدة أكبر بكثير في السنوات القريبة المقبلة، سواء في غزة أو في الضفة إذا انسحبت إسرائيل منها أيضًا. في مثل هذه الحالة، ستصبح إسرائيل دولة عديمة الحماية؛ لأن التهديدات المدفعية وتهديدات مضادات الطائرات على مسافة قريبة جدًّا من مراكزها السكانية وبُناها التحتية العسكرية ستمس بقدرتها على أداء المهام في حالة حرب شاملة.

وحتى القدرة على تشويش الحياة في وسط البلاد من المناطق المجاورة ـ مثلما يجري الآن في الجنوب ـ تكفي لتهديد اقتصاد الدولة ومجرد بقائها على قيد الحياة لزمن طويل.

من يتجاهلون انهيار التجريد في غزة ويواصلون التمسك بصيغة الأرض مقابل السلام من شأنهم أن يجدوا أنفسهم يراهنون على مجرد وجود الدولة»[1].

صواريخ أكثر دقة ومدى أبعد

«التهديد الذي ستقف أمامه إسرائيل في جولة قتال أخرى في غزة ـ ولا سيما في لبنان ـ صواريخ أكثر دقة، ومدى أبعد.

الصواريخ والمقذوفات الصاروخية التي نشرها حزب الله وحماس تغطي كل أراضي الدولة كما يصفون ذلك في شعبة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي. في الحروب القادمة، سيتعين على الجيش الإسرائيلي أن يعمل في ظل تلقي قصف شديد في الجبهة الداخلية الإسرائيلية. ستكون هناك حاجة إلى استخدام قوة عظيمة لإيقاف النار المعادية»[2].

الكابوس الأمني الأشد منذ ١٩٤٨

صواريخ المقاومة سواء في غزة أو جنوب لبنان هي الكابوس الأمني الأشد منذ عام ١٩٤٨ على حد تعبير آفي شنيئور مدير الجمعية الإسرائيلية للدفاع ضد الصواريخ، فيقول:

---

(١) يوفال شتاينتس، التجريد المفقود، هآرتس، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) عاموس هرئيل، نار قواتنا، هآرتس، ١٥/ ١١/ ٢٠٠٩.

«في السنوات الأخيرة، يركز أعداؤنا جُل جهودهم على الاستعداد لحرب الصواريخ. عمليًا منذ اليوم، موجه نحونا أكبر أسطول من الصواريخ الباليستية في العالم. وعندما تتفرغ الحكومة الجديدة لتقدير المكانة الإستراتيجية لإسرائيل وتحديد الاتجاهات والسياسات الجديدة، فإنها ستقف أمام الكابوس الأمني الأشد الذي تقف أمامه إسرائيل منذ العام ١٩٤٨.

نحن نسيطر بلا منازع على المجال الجوي في الشرق الأوسط ؛ ولكن ليس على مجالنا الجوي. أعداؤنا من الشمال قادرون على أن يملئوا سماء إسرائيل بالصواريخ وبالقذائف الصاروخية. ومن اللحظة التي تصعد فيها هذه إلى الجو، فإن قدرة اعتراضها ستكون محدودة جدًّا.

مع أن لدى إسرائيل صاروخ حيتس ـ منظومة دفاعية منتشرة وقوية ضد الصواريخ ترمي إلى اعتراض الصواريخ على المدى البعيد والمتوسط ـ إلا أنه ليس لدينا بعد دفاع ناجع ونشط ضد الصواريخ والقاذفات الصاروخية القصيرة المدى. غياب خطة دفاعية شاملة ضد هذه الصواريخ يدل على فجوة كبيرة ـ من ناحية التصدي للتهديد المتزايد ـ بين المكان الذي نوجد فيه الآن وبين المكان الذي ينبغي لنا أن نوجد فيه.

حقيقة أنه بعد ثماني سنوات وبعد أعمال عسكرية عديدة لم يكن بوسعنا منع نار الصواريخ من غزة تشكل ضوء تحذير خطيرًا، في الحرب القادمة، سنتصدى لرءوس متفجرة بوزن نصف طن تنزل على أهداف اُختيرت بعناية. وبالتالي فمن الحيوي أن نبدأ في التركيز على هذا التهديد»[1].

الصواريخ واستراتيجية المقاومة

تمثل صواريخ المقاومة تهديدًا إستراتيجيًا خطيرًا لإسرائيل ووسيلة إنهاك فعالة للوجود الصهيوني، يقول موشيه أرنس وزير الدفاع الأسبق: «في حرب الخليج الأولى، أطلقت العراق على إسرائيل صواريخ أتى بها من الاتحاد السوفيتي وكوريا الشمالية.

منذ تلك الحرب، أصبحت الصواريخ السلاح الذي يفضله أعداء إسرائيل. تقوم

(١) آفي شنينور، التهديد الأكبر: صواريخ في سماء إسرائيل، يديعوت، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٩.

عشرات الآلاف منها ـ والعدد يكبر كل يوم ـ في غزة وفي جنوب لبنان، وتهدد جميع مواطني إسرائيل. إن ما كان يبدو في أيام صواريخ الكاتيوشا التي أُطلقت على شمال الدولة قلق محتمل أصبح تهديدًا إستراتيجيًّا. كلما زاد عدد الصواريخ، أحجمت حكومة إسرائيل ـ التي تخاف خسائر باهظة تصيب مواطنيها ـ عن الأخذ بعمل ناجع للقضاء على التهديد.

إستراتيجية الإرهابيين بسيطة: عندما يملكون مخزون صواريخ على نحو كاف فإنهم يطلقونها على إسرائيل من آن لآخر، أو يقومون بأعمال تحرش أخرى كاختطاف جنود، عالمين بأن الحكومة ستحجم عن الرد بالقوة خوف إطلاق كثيف للصواريخ على البلدات.

الحديث الآن عن وضع لا يطاق بالنسبة لإسرائيل. فسكانها المدنيون صاروا كرهائن عند الإرهابيين في الشمال والجنوب. إن مدى الصواريخ يغطي الآن جميع مساحتها. تهديد الصواريخ الدائم من قبل منظمات إرهابية كحزب الله وحماس هو خطر حقيقي على أمن إسرائيل»[1].

حماس تستعد للجولة القادمة

استوعبت حماس أخطاءها في حرب الرصاص المصهور، وهي تعمل على ترميم وتطوير قدراتها العسكرية استعدادًا للجولات القادمة، يقول أمير بوحبوط: «استخلصت حماس استنتاجات من «رصاص مصهور». وهي تعمل على تعظيم كبير لقوتها كاستعداد لجولة أخرى مع إسرائيل. وحسب التقديرات في جهاز الأمن، لدى المنظمة قدرات أحسن مما كانت لها قبل حملة الجيش الإسرائيلي، في صورة آلاف المقذوفات الصاروخية والوسائل القتالية الأخرى المخبأة جيدًا تحت الأرض. جُمعت كميات هائلة من الوسائل القتالية داخل قطاع غزة، هُرِّب معظمها من إيران وسوريا، فيما أنتجت الباقية الصناعة العسكرية المحلية في غزة. كان الهدف الأساس لدى المنظمة هو توسيع مدى المقذوفات الصاروخية حتى مسافة ٨٠ كيلومترًا إلى عمق الجبهة الداخلية الإسرائيلية. وهو مدى يغطي بل ويتجاوز تل أبيب الموسعة.

سباق التسلح لدى حماس يتضمن مئات المقذوفات الصاروخية إلى مسافات مختلفة، بل وصواريخ قسام متطورة، صواريخ كاتيوشا وصواريخ فجر من إنتاج إيراني.

---

(١) موشيه آرنس، من فون براون إلى نصر الله، هآرتس، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩.

أساس التخوف في إسرائيل هو من عبوات شواظ الإيرانية شديدة الانفجار القادرة على اختراق سمك ٢٠٠ ملم من الفولاذ.

في حماس قرروا الاستعداد لإمكانية تشديد وتيرة إطلاق الصواريخ. ولهذا الغرض تعاظمت صناعة الأنفاق على طول قطاع غزة. في السنة الأخيرة، حُفرت عشرات الكيلومترات من الأنفاق تحت مدينة غزة ومحيطها. وقد بُنيت الأنفاق تحت منازل المواطنين، وأُقيمت فيها مواقع إطلاق تحت أرضية.

التقديرات في جهاز الأمن تتحدث عن أنفاق تحت أرضية بُنيت أيضًا في اتجاه إسرائيل بهدف السماح لمخربي حماس بالتسلل إلى البلاد، وتنفيذ عمليات، واختطاف جنود»[1].

* * *

(١) أمير بوحبوط، جيش القطاع، معاريف، ١١/ ١٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

إسرائيل والبحث عن شرعية الوجود والبقاء

أعادت حرب غزة بقوة إلى ذاكرة العالم السؤال عن شرعية وجود إسرائيل. وعاد الربط بينها وبين جنوب أفريقيا إبان فترة حكم الأقلية البيضاء، يقول الداد يانيف: «أقدام إسرائيل آخذة في الانحسار في العالم. وهي لا بد ستصل إلى حالة جنوب أفريقيا. على بنيامين نتنياهو أن يقرر إذا كان هذا سيحصل في نوبة حراسته، وإسرائيل ستغلق قصة حكمها للضفة مثلما أغلق شارون قصة إسرائيل في غزة وباراك في لبنان. وإلا، فبعد نتنياهو، سيأتي فريدريك دي كلارك[1] الإسرائيلي، ويقودنا إلى شاطئ الأمان»[2].

ولقد تحدث الكثير من الكُتاب الإسرائيليين عن هذا السؤال المثار عالميًّا عن شرعية وجود إسرائيل، وعدَّوه مؤشرًا على السقوط والتحطم، ومؤشرًا على تكبيل يد إسرائيل في أي حرب قادمة، ومؤشرًا أيضًا على الملاحقة القانونية الدولية لكل من شارك في هذه الحرب من الساسة والضباط والجنود. وجاءت عباراتهم دالة على المأزق الوجودي الذي تحياه إسرائيل اليوم، مثل: كيان منبوذ، دولة مارقة، دولة برصاء، الحيوان الدنس.

---

(١) آخر رئيس وزراء أبيض في تاريخ جنوب أفريقيا، وهو الذي أصدر قرارًا بالإفراج عن نلسون مانديلا بعد كفاح طويل للسود هناك وبعد عقود من حكم التفرقة العنصرية. وكان خروج مانديلا إيذانًا بانتهاء حكم الأقلية البيضاء وعودة الحق لأصحابه الأغلبية السوداء.

(٢) ألداد يانيف، دي كلارك إسرائيلي، هاآرتس، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

شرعية القيام تتلاشى

«تحت الماء الهادئ ـ الذي تبحر فوقه السفينة الإسرائيلية ـ جبل جليد. كان تقرير جولدستون أول ظهور لجبل الجليد. إدارة الظهر التركية ظهور آخر. مطاردة ضباط الجيش الإسرائيلي في أوروبا ظهوره الثالث. مقاطعة منتجات وشركات إسرائيلية في أماكن مختلفة في العالم ظهور رابع. وبلادة الحس إزاء قوة تحصل على القدرة الذرية وتهدد بمحو إسرائيل ظهور خامس. في كل يوم يُظهر الجبل الجليدي وجهه. جبل الجليد هو فقدان إسرائيل شرعيتها.

قبل ٩٢ سنة، أرسل اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد رسالة اعترف فيها بحق الشعب اليهودي في إقامة وطن قومي في أرض إسرائيل. وقبل ٦٢ سنة، اعترفت الأمم المتحدة بحق الشعب اليهودي في إقامة دولة يهودية.

تصريح بلفور ١٩١٧ وقرار تقسيم الأمم المتحدة ١٩٤٧ منحا الصهيونية القاعدة السياسية التي قامت عليها دولة اليهود وما زالت تقوم. لكنه في العقد الأخير أخذت القاعدة تضعف. وفكرة دولة يهودية معرضة للهجوم. وحق الشعب اليهودي في إقامة سيادة والدفاع عنها مختلف فيه. على نحو مفارق، كلما ازدادت دولة إسرائيل قوة تلاشت شرعيتها.

إن المعركة على تجديد الشرعية الإسرائيلية معركة حيوية. فلن تستطيع إسرائيل بغير شرعية أن تواجه إيران. وبغير شرعية، لن تتوصل إسرائيل إلى السلام، ولن تستطيع أيضًا أن تدير حربًا.

لإعادة ما فقدته إسرائيل إليها، فثمة حاجة ضرورية إلى مبادرة سياسية خلاقة جريئة تبرهن على أن إسرائيل تسعى حقًا إلى إنهاء الاحتلال. من جهة ثانية، توجد حاجة إلى تجنيد النخب الإسرائيلية واليهودية للنضال عن تأسيس الشرعية الإسرائيلية من جديد. لا يقل هذا النضال أهمية عن النضالات التي أثمرت تصريح بلفور وقرار التقسيم. إذا لم يتم البدء به على الفور وإذا لم ينجح في أسرع وقت، فستصبح إسرائيل برصاء»[1].

إسرائيل الدولة المارقة والحيوان الدنس

يحذر إسرائيل هرئيل من تشكيل لجنة تحقيق إسرائيلية نزولًا على مطالبة تقرير جولدستون،

(١) آري شفيت، إسرائيل وفقدان الشرعية العالمية، هآرتس، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

فيقول: «إن لم تتوقف هذه السخافة اللامنطقية، فلن يكون لدينا جيش مقاتل. يريدون تحويلنا إلى دولة مارقة في نظر العالم. والناس يخافون خوفًا خياليًّا من المارقين المجذومين. هذا الخوف يتمخض عنه الكراهية. كما أن دماء المارقين ـ وخصوصًا أولئك الذين ينفذون جرائم ضد الإنسانية ـ مستباحة ومهدورة.

بروتوكولات حكماء صهيون اتهمتنا بحياكة مؤامرة عالمية شاملة. وها هو قاض يهودي يأتي ويكشف لنا النقاب عن أن الحقيقة أكثر مرارة: ما إن عدنا إلى وطننا حتى شرعنا بتنفيذ جرائم أسوأ بأضعاف المرات. السيطرة على البنوك ووسائل الإعلام ودق الإسفين والنزاعات بين الشعوب هذه كانت فقط طرف جبل الجليد. عندما يستخدم اليهود جيشًا يكشفون عن شيطانيتهم الكاملة. هذا سبب آخر من وراء وجوب إزالة الكيان اليهودي المستقل.

مؤامرة تحويلنا إلى مجذومين مارقين في نظر العالم تُحفَر عميقًا في وعي أمم كثيرة، بما فيها تلك التي تدعي أنها تحمل راية العدالة الطاهرة. الأمر المشترك بين كل المجندين ضدنا هو الرغبة في إضفاء صورة الحيوان الدنس على إسرائيل»[1].

العالم يتقلص أمام إسرائيل

«بعد سنوات طويلة من الاستخفاف التام بالأسرة الدولية وخرق القوانين والمواثيق، ثمة آخيرًا في النخبة العسكرية من لا يمكنهم أن يطيروا إلى سويسرا لغرض التزلج، أو إلى حضور أوبرا في كوبنت جاردن أو إلى معرض تكنولوجيا عليا في إسبانيا، دون أن يستشيروا أولًا محاميهم.

الشعار الوقح لدافيد بن جوريون: «ليس مُهمًّا ما يقوله الأغيار، مُهمٌّ ما يفعله اليهود» رافق دوما إسرائيل، ومنح تخويلًا تمرديًّا لأسرتها الأمنية من الموساد والجيش وحتى الوحدات الخاصة. غير أن شعار بن جوريون كان كاذبًا. دولة إسرائيل مع كل القوة العسكرية كانت متعلقة دومًا بما يقوله العالم: « إسرائيل وُلدت من قرار دراماتيكي للجمعية العمومية للأمم المتحدة».

العالم ـ لدى الإسرائيليين ـ تقلص لينحصر في الغرب الاستعماري السابق. ورويدًا

(١) إسرائيل هرئيل، لا تشكلوا لجنة تحقيق في عملية الرصاص المصهور، هآرتس، ١/ ١٠/ ٢٠٠٩.

رويدًا تقلص أيضًا الغرب لينحصر في الولايات المتحدة. وهذه تقلصت لتنحصر في مجموعة الضغط غير المحبوبة جدًّا هناك، بصناعات السلاح، الأجهزة السرية والبنتاجون. باختصار، العالم تقلص إلى ما شخصته النخبة العسكرية كعالمها. العلاقات الخاصة أُعتبرت إنجازًا، إذ إن إسرائيل اجتهدت جدًّا منذ قيامها لإقناع الولايات المتحدة بأنها ذخر إستراتيجي لها.

باختصار، هذه الخدعة «ليس مهمًّا ما يقوله العالم» تتحطم الآن مرة أخرى في الوجه. يوجد عالم ليس كله بائع سلاح، ليس كله مزدوج المعايير، ليس كله لاساميًا. حان الوقت للتزود ببعض من المعايير الجديدة للواقع»[1].

قبل أن يصبح الأمر متأخرًا جدًّا

«أُستقبل رئيس الدولة شمعون بيريز في الأرجنتين وفي البرازيل بتظاهرات عدائية. وفي دول كثيرة يقاطعون منتجات إسرائيل، ويتلقى محاضرون إسرائيليون في كل حرم جامعي في العالم الغربي صيحات تنديد. إيهود أولمرت ـ الذي كان في حملة محاضرات في الولايات المتحدة في المدة الأخيرة ـ كان يلقى في كل منتدى تقريبًا صيحات من نوع: أنتم قتلة أطفال.

إن أكثر الأشياء إقلاقًا ما يحدث داخل الجامعات الأمريكية، التي أصبحت رويدًا رويدًا مشايعة للفلسطينيين معادية للإسرائيليين. وهذا خطر لأن قادة أمريكا في المستقبل يتخرجون من هناك. ليس ذلك لدوافع معادية للسامية كما يزعم مقاولونا السياسيون.

قبل أن نحشر أنوفنا في مشكلات حصول إيران على القدرة الذرية، يفضل أن تبحث الحكومة كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه، وما الذي يجب فعله لوقف سقوط صورتنا في العالم قبل أن يصبح الأمر متأخرًا جدًّا»[2].

انتصار محمل بالهزيمة

«بعد عشرة أشهر يبدو أن العملية في غزة كانت انتصارًا محملًا بالهزيمة. خلافًا لحرب لبنان الثانية التي انتهت مع وقف النار ؛ لا تزال حرب غزة مستمرة في الدبلوماسية وفي

(١) إسحاق ليئور، إطفاء نور للأغيار، هاآرتس، ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩.
(٢) يوئيل ماركوس، كيف أصبحت إسرائيل ظلامًا للأغيار، هاآرتس، ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩.

الرأي العام. نقل الفلسطينيون الحرب إلى الساحة المريحة لهم، ويستغلون تفوقهم في الرأي العام. الدعوات إلى مقاطعة إسرائيل تتعزز. تركيا تنفض عنها الحلف الإستراتيجي مع إسرائيل. حماس تتلقى بالتدريج الاعتراف كجهة شرعية، وتجمع الصواريخ دون مُعيق. زعماء إسرائيل منشغلون بالدفاع عن أنفسهم، ويخشون أوامر الاعتقال في أوروبا»[1].

ملّنا العالم

يقول إيتان هابر رئيس ديوان إسحق رابين: «في هذه العهود من العولمة، العالم بات أصغر، بات مُعاديًا، بل وكارهًا لخارقي النظام العاقّين، ونحن نُعتبر كذلك. انتهت الأيام التي كان يقول فيها رئيس وزراء إسرائيل هاتفيًّا للرئيس الأمريكي: «أريد أن أراك» ويقفز إليه في الغداة. انتهت الهواتف إلى البيت الأبيض والتي كانت تُنسَق فيها المحادثات: «أنت تقول كذا» و«أنا أقول كذا»، أو الهاتف من القدس مثل الأمر: «نحن نقترح أن تعقبوا بكذا وكذا». الولايات المتحدة لا تزال تؤيد بنزاهة إسرائيل، ولكن الأصم الغبي والصغير فقط لا يلاحظ ما يحصل. ملّنا العالم الذي يريد الهدوء رغم العراق وأفغانستان»[2].

صبر العالم آخذ في التضاؤل

يقول دوف فايسغلاس مستشار شارون تعليقًا على تقرير جولدستون: «التأييد الذي يحظى به التقرير في دول مهمة ليست كلها معادية لإسرائيل، يدل على أن صبر العالم على إسرائيل آخذ في التضاؤل. فالجميع يرون أن النزاع هو السبب في معظم الشرور التي تصيب العالم، والثقة في جدية نوايا إسرائيل في تحقيق تسوية سياسية مع الفلسطينيين آخذة في النفاد. وهكذا فإن جملة «العالم كله ضدنا» من شأنها أن تصبح واقعًا»[3].

إسرائيل بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط

يتحدث شلومو جازيت الرئيس الأسبق لجهاز الاستخبارات العسكرية عن مستقبل

---

(١) ألوف بن، مصداقية جولدستون، هآرتس، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) إيتان هابر، نهاية اللعبة، يديعوت، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٣) دوف فايسغلاس، تقرير جولدستون: هذه مجرد الأعراض، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

إسرائيل القاتم، فيقول: «كلنا نعرف قصة الرجل الذي سقط من سطح مبنى الإمباير ستيت، وما إن مر على الطابق الـ ٥٤ حتى قرر: So far so good [1] هذه القصة ـ النكتة الحزينة ـ تصبح مقلقة على نحو خاص عند التفكير فيها في السياق الإستراتيجي الوطني الإسرائيلي. فنحن نوجد في وضع مشابه من التدهور والسقوط. وسأكتفي بموضوعين يعودان ليكونا على جدول الأعمال الوطني عندنا. موضوعان لا يعالجان، ولا نحاول أن نقدم لهما جوابًا وحلًا. وكلنا ـ مثلما في تلك القصة ـ نواصل الادعاء بأن كل شيء على ما يرام:

• **الموضوع الأول**: هو عملية نزع الشرعية عن إسرائيل، عملية مشابهة لتلك التي اجتازها النظام الأبيض في جنوب أفريقيا وأدت إلى انهياره قبل ثلاثين سنة.

• **الموضوع الثاني**: هو الخطر الديموجرافي. في ظل غياب حل سياسي يفصل دولة إسرائيل ذات أغلبية يهودية متماسكة عن الكتلة العربية الفلسطينية التي بين البحر والنهر، فإننا نتقدم بعيون مفتوحة نحو قيام دولة ثنائية القومية تفقد فيها الأغلبية اليهودية سموها»[2].

* * *

(١) ترجمة هذه الجملة: حسن حتى الآن، أو كل شيء على ما يرام حتى الآن.

(٢) شلومو جازيت، إسرائيل بعيون مفتوحة تسير نحو التحطم والسقوط، معاريف، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.